

ذكر نماذج لهمة السلف في طلب العلم

فنقول: إن الإنسان مهما داق حلاوة العلم فإنه يزداد نهمه ويزداد طلبه ولا يشبع أبداً، سواء كان يقرأ القرآن، أو يقرأ كتب السنّة، أو يقرأ كتب أهل الفقه وأهل العلم النافع، أو يقرأ أيضاً في كتب أهل الآداب والأخلاق التي فيها محاسن الأعمال ومساوئها، أو ما أشبه ذلك. ولن يجد لذلك نهاية، لذلك روي في بعض الآثار: "منهومان لا يشبعان: طالب دنيا، وطالب علم، والمنهوم هو: الذي له نهمة وهذه تدفعه، فطالب الدنيا مهما حصل منها لا يشبع ولا تنتهي رغبته، كذلك طالب العلم مهما حصل لا يزال يواصل الطلب، ولا يزال يتعلم حتى يصل إلى آخر حياته. كما روى عن الإمام أحمد أنه قال: من المحبرة إلى المقبرة، يعني: أنه يستغل بطلب العلم وكتاباته من المهد إلى اللحد. هذه حالة أهل العلم الذين أفنوا حياتهم في ذلك، وقد أخبروا بالصعوبات التي لاقوها، وما صبروا عليه من المشقات، وأنهم ما حصلوا هذا العلم إلا بعدما وصلوا إلى ما وصلوا إليه واجتهدوا، فقد روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه كان إذا بلغه الحديث عن أحد الصحابة ذهب إليه حتى في القيلولة في شدة الحر في وسط النهار، فإذا طرق بابه، وقيل: إنه نائم، وقف أو جلس عند الباب في حر الشمس حتى يستيقظ للصلوة، فإذا استيقظ ورأه عند الباب استنكر ذلك، وقال: كيف وأنت ابن عم النبي -صلى الله عليه وسلم- تجلس في الشمس؟! فيقول: إني كرهت أن أوقظك، فيقول: هلا أخبرتني فاتيك، فيقول: لا العلم يؤتي ولا يأتي؛ العلم يستحق أن يؤتني إليه، حامل العلم يستحق أن يُعْتَنَى به، هكذا كان -رضي الله عنه-. كذلك روي عن الإمام الشافعي أنه تكلم بكلام يدل على فضل العلم، وعلى فضل الحرص، وعلى فضل مواصلة العلم، يقول فيما روي عنه: "العلم بطبي اللزام، بعيد المرام، لا يدرك بالسهام، ولا يورث عن الآباء والأعمام، إنما هو شجرة لا تصلح إلا بالغرس، ولا تغرس إلا في النفس، ولا تسقى إلا بالدرس، ولا يحصل إلا لمن أنفق العينين، وجثا على الركبتين. وانظر إلى من شغل نهاره بالجمع وليله بالجماع، أيخرج من ذلك فقيها؟! كلا والله، حتى يحتفظ الدفاتر، ويستحصل المحابر، ويقطع الفقار، ولا يفصل في طلبه بين الليل والنهار." ولا شك أن هذا منه -رحمه الله- حتى على الصبر والمصايرة في طلب العلم، وبيان أن أهله يلاقون منه المشقات والصعوبات، ويصبرون على قطع القفار التي هي الفيافي والمفازات والأسفار، حتى كان بعضهم يسافر مسيرة شهر لأجل أن يحصل على حديث واحد، وحتى كان البعض مشياخنا أو مشايخنا يبيت الليل كله ينسخ ويكتب، ولا يتفرغ لأكل عشاءه إلا بعد أذان الصبح أو قرب أدائه، وكل ذلك من نهمته وحرصه على طلب العلم وتعلمه. وكذلك أيضاً حرص كثير منهم في كتابة العلم على أن ينفعوا الأمة بما يكتبونه؛ فقد روي أن بعض العلماء كابن حرير مكت أربعين سنة يكتب في كل يوم أربعين ورقة؛ أي ثمانين صفحة من التأليف، وذلك لا شك أنه يأتي إلى مؤلفات كثيرة. وآخر من العلماء ذكروا أنه بعد كل صلاة العشاء يكتب عشرين ورقة في كل ليلة قبل أن ينام، يعني من التأليف، ويسير على البحث، وطول التقريب، وذلك كله حرص منهم على المعرفة، ونفع الأمة بما يصلون إليه أو بما ينتفع به بعدهم.